التدوين التاريخي ومنهجه عند إباضية المغرب ما بين القرنين (4-10هـ/10-16م).

Historical Blogging and Its Methodology Among the Ibadis of the Maghreb Between the 4th and 10th Centuries AH/10th and 16th Centuries AD

علي زيان.
-جامعة محمد خيضر؛ بسكرة (الجزائر).
- البريد الإلكتروني: *ali.ziane@univ-biskra.dz.*

تاريخ الإرسال: 2025/05/31؛ تاريخ القبول:2025/06/12؛ تاريخ النشر:2025/06/15.

الملخص:

تعالج هذه الورقة البحثية التدوين التاريخي عند فرقة الإباضية ببلاد المغرب بعد سقوط الدولة الرستمية بتهرت وتفرق أهلها بين أقاليمه، رغم ذلك عملوا على تثبيت فكرهم وعقائدهم وتاريخهم وتدوينه، في محاولة منهم لعدم اندثاره، وكان اهتمام مفكريهم وفقهائهم الكبير بتاريخ مذهبهم وأخبار دعاتهم الأوائل، وأئمة دولتهم المندثرة، وسير علمائهم، وبناء على ذلك سنحاول رصد الفكر التاريخي الإباضي عن طريق التعريف بأهم أعلامه والموضوعات التي كتبوا فيها والمصادر والموارد التي اعتمدوا عليها في مؤلفاتهم، والمناهج التي اتبعوها في ذلك. ومن النتائج المتوصل إليها أن جل مؤلفاتهم قد تميزت بالمذهبية، فقد اعتنت بتدوين تاريخ الاباضية دون غيرها،

وترجمت لأعلام المجتمع الإباضي من الفقهاء والمحدثين والعلماء وانتقدت الحركات المناوئة والمخالفة لمذهبهم. وسلكوا في ذلك عدة مناهج متميزة عن سابقيهم أو المعاصرين لهم من المؤرخين المسلمين في توجهاتهم وميولاتهم وطرق نقلهم وأسلوبهم وعرضهم للمادة التاريخية في مصنفاتهم.

الكلمات المفتاحية: التدوين التاريخي؛ السير؛ الإباضية؛ بلاد المغرب؛ ورجلان.

Abstract:

This research paper addresses the historical blogging of the Ibadi sect in the Maghreb after the fall of the Rustamid dynasty in Tahrir and the dispersal of its people across its regions. Despite this, they worked to consolidate and document their thought, beliefs, and history, in an effort to prevent their disappearance. Their thinkers and jurists paid great attention to the history of their sect, the accounts of their early preachers, the imams of their vanished dynasty, and the biographies of their scholars. Based on this, we will attempt to monitor Ibadi historical thought by identifying its most prominent figures, the topics they wrote about, the sources and resources they relied on in their writings, and the methods they followed. Among the findings is that most of their writings were characterized by sectarianism. They focused exclusively on documenting Ibadi history, providing biographies of prominent Ibadi jurists, hadith scholars, and scholars, and criticizing movements that opposed and deviated from their doctrine. In doing so, they adopted several approaches distinct from those of their predecessors or contemporaries among Muslim historians, in their rientations, tendencies, methods of transmission, style, and presentation of historical material in their works.

Keywords: historical blogging; biographies; Ibadism; the Maghreb; Virgilan.

مقدمة:

تعتبر حركة التدوين التاريخي عند الإباضية ببلاد المغرب الإسلامي خلال الفترة الممتدة من القرن الرابع إلى القرن العاشر الهجريين، من أهم الكتابات في هذا المجال لأنها تُعطي صورة شاملة عن جوانب الحياة المختلفة في المنطقة، كما أنها تعبر عن التوجهات الفكرية وتطورها عند هذه الفرقة، بالرجوع إلى هذه التصانيف التاريخية والتعمق في دراستها وقراءتها قراءة دقيقة موضوعية، لمعرفة العلاقة بينها وبين الفرق والمذاهب الأخرى، من حيث الموضوعية والتحيز وجوانب أخرى، وهو ما يطرح إشكالية هذا الموضوع المتمثلة في تسليط الضوء على منهج مؤرخي الإباضية وإنتاجهم الفكري ما بين القرنين الرابع والعاشر الهجريين من خلال طرح بعض التساؤلات والإجابة عنها، ومنها:

كيف استمر الإباضيون في كتابة تاريخهم والاهتمام به بعد سقوط دولتهم؟ من هم أشهر المؤلفين وكتاباتهم؟ ما هي المصادر والموارد التي اعتمدوها في مصنفاتهم؟ ما طبيعة المناهج التي انتهجوها في معالجة موضوعاتهم المتنوعة؟

1. اهتمام الإباضية بالتاريخ بعد انقطاع:

بعد انقطاع الرواية التاريخية الإباضية مع سقوط الدولة الرستمية في تيهرت عام 296هـ/901م، وتفرق أهلها لم تظهر كتابات تاريخية ملحوظة خلال فترة القرن 4هـ/10م، بسبب ضياع أمهات المصادر الإباضية المغربية الفقهية منها والعقدية والتاريخية، جراء حرق مكتبة المعصومة على يد العبيديين الشيعة(ابن خلدون، 2001، ج3، ص 47؛ زقاوي وبلبشير، 2017، ص:206)، إلا أن الجماعات الإباضية

استطاعت أن تلملم شملها وتستقر في واحات وارجلان ووادي مزاب ووادي ريغ وبلاد الجريد وجبل نفوسة في مرحلة متأخرة بداية من القرن 5هـ/11م هروبًا من الضغط الشيعي، حيث قاموا بتأسيس نظام العزابة ضمن إمامة الكتمان.

وقد أولى هذا النظام اهتمامًا كبيرًا بحفظ سير شيوخ وأئمة المذهب، بل العمل على نقلها عبر الأجيال المتعاقبة، مما أدى إلى بروز عدد كبير من الرواة والإخباريين الإباضيين الذين أُعتُمد على رواياتهم في كتابة السير الإباضية وشكلت بذلك ذاكرة جماعية حفظت السير الإباضية من الانقطاع والضياع (ساحلي، 2008، ص 51).

وكانت هذه الروايات والأخبار تُدرّسُ في حلقات العلم المنعقدة في البلدان التي يقطنونها، مستفيدين من بعض الكتب التي بقيت ونجت من الحرق تشكلت منها مكتبة جبل نفوسة التي أصبحت تحتوي على عدد معتبر من المجلدات في مختلف العلوم، وقادوا حركة جادة لحفظ تراثهم وتاريخهم في محاولة منهم للتصدي للفكر الإسماعيلي الذي كانت الدولة الفاطمية تسعى لنشره بين أتباع المذاهب الأخرى بالمغرب، وانكب مفكرو الاباضية على كتب السلف تصنيفا ومراجعة وتأليفا، بفضل جهودهم، ظهر خلال هذه الفترة عدد من الرواة والمؤرخين، من بينهم المؤرخ والنسابة أيوب بن أبي يزيد النكاري، الذي كان من فرقة الإباضية النكار (ابن الأثير، 1994، ج7، ص 196؛ ابن عذارى، 1983، ج1، ص 216). نشأ أيوب نشأة مؤرخ ونسابة، وتجلت مواهبه ومعارفه في هذا المجال حين أرسله والده إلى الأندلس لكسب دعم الخليفة الناصر لدين الله (300 -350هـ/912 - 961م) لثورة أبيه ضد الفاطميين. وهناك التقى بالمؤرخ الأندلسي الشهير

محمد بن يوسف الوراق (ت 332هـ/914م)، واطلع منه على أنساب البربر التي دونها يوسف الوراق. ويورد كل من ابن حزم (ت 456هـ/1063م) وابن خلدون (ت 808هـ/1405م) روايات أيوب المتعلقة بأنساب وأصول البربر، مستندين إلى مؤلفات يوسف الوراق حول مدن المغرب المفقودة (ابن حزم، 1999، ص 495؛ ابن خلدون، 2001، ج7، ص 4، 18، 23؛ شكيران، 2010، ص 120).

خلال هذه الحقبة، برز اثنان من الرواة هما أبو محمد عبد الله بن محمد بن ناصر اللواتي، ومعبد بن أفلح الزناتي (اللذان توفيا في أواخر القرن الخامس الهجري)، لكن مؤلفاتهما ضاعت. ومع ذلك، ترك معبد بن أفلح روايات تاريخية محفوظة ضمن سير أبي الربيع الوسياني، تتناول طرائف إباضيي إقليم نفزاوة (ليفيتسكي، 2000، ص 64).

ومن بين الذين اهتموا بتاريخ وسير الإباضية في هذا العصر، يأتي أبو حمزة إسحق بن إبراهيم بن إسماعيل الورجلاني، الذي عاش في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وكان خال المؤرخ الإباضي المعروف أبي زكريا يحيى بن أبي بكر الورجلاني. كان أبو حمزة معنيًا بأخبار التاريخ الإباضي وكتب في سير الأئمة والمشايخ، ويُعتقد أن أبا زكريا استقى منه معلومات لكتابه الشهير "سير الأئمة وأخبارهم"(ليفيتسكي، 2000، ص 77 أ، شكيران، 2010، ص 121).

وجاء من اهتم بالفكر التاريخي المذهبي، كأبي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي (ت 471هـ/1078م) وهو من الفقهاء المؤرخين كما يصفه الدرجيني والشماخي، قام بتدريس تلاميذ الإباضية سير مشاهير المشايخ، خلال تنقلاته في أماكن تجمع الاباضية، وعنه أخذ المؤرخ أبو

زكريا الورجلاني رواياته في التاريخ والسير، حيث يعتبر أبو الربيع المصدر الأساسي في كتابه «سير الأئمة وأخبارهم»، كما تدل رواياته عند أبي الربيع الوسياني في كتابه السير، وعند الدرجيني والشماخي على إلمامه بتواريخ الإباضية وسعة علمه بالأخبار، ولأبي الربيع بالإضافة إلى المصنفات الفقهية، مصنف في السير، معروف بـ **«سير أبي** الربيع المزاتي» (الدرجيني، 1974، ج2، ص ص 97 -98؛ الشماخي، 2009، ج2، ص 82)، واسمه «طلب العلم وآداب المعلمين»، ويبدو أنه ضمنه طرائف علمية عن مشايخ المذهب، وأخبارهم وسيرهم.

ومن أبرز مؤرخي الإباضية خلال القرن 5هـ/11م أبو زكريا الورجلاني يحي بن أبي بكر بن سعيد (ت 474هـ/ 1081م)، مؤلف أهم كتاب عن تاريخ الإباضية بالمغرب كمذهب ودولة وأخبار علماء الإباضية وهو «السيرة وأخبار الأئمة»، أو «أخبار أبي زكريا»، وهو من الإباضية الوهبية، ومن تلاميذ الشيخ أبي الربيع المزاتي، لذا كان للأخير وجود وذكر كثير في كتابه وقد عُرف أبو زكريا بالفقه والعلم بقواعد المذهب الإباضي ويصفه كل من الدرجيني والشماخي بالفطنة والذكاء، وأنه عالم بالطبقات، وينقلان عنه عدة مسائل وفتاو فقهية، وأجوبة في علم الكلام، مما يدل على سعة معارفه المذهبية، ومكانته بين علماء الاباضية، لكن لم تبين كتب طبقات الاباضية تفاصيل حياته ورحلته في طلب العلم، ولا تضيف معطيات مفيدة إلى سيرته تمكننا من معرفة تراثه العلمي وتوجهه الفكري (الدرجيني، 1974، ج2، ص ص 107. 108؛ بروكلمان، 1959، ج6، ص 92)، وأشار أبو الربيع الوسياني في سيره إلى أن لأبي زكريا فضل

السبق في كتابه أخبار الدعوة الاباضية(الوسياني، 2009، خ1، ص 114، شكيران 2010، ص 123).

ومما يدل على مكانة كتابه عند الإباضية، وأنه المعتمد عند علماء المذهب ومؤرخيه، وأن كتب طبقات وسير كل من الوسياني والبغطوري والدرجيني والشماخي اعتمدت عليه واتبعت أسلوبه، ونقلت منه أخبارا كثيرة تخص أعلام المذهب، فقد نقل كل من الدرجيني والشماخي كلام أبي زكريا عن بعض مسائل الفقه من كتاب «سير أبو الربيع الوسياني»، وكتاب أبي زكريا هذا هو من أوائل كتب السير في تاريخ الإباضية بالمغرب، وقد تضمن سردًا تاريخيًا لروايات وأخبار حول الرستميين، وتأسيس دولتهم وعاصمتها مدينة تاهرت وصولاً إلى سقوطها في نهاية القرن 3هـ/9م، مع ما تخلل ذلك من صراع مع الشيعة، وقد بدأ أبو زكريا الوارجلاني كتابه بذكر فضائل الفرس والبربر، وهما القاعدة التي سترتكز عليها الدولة الرستمية، كما أورد أخبار الدعاة الخمسة الأوائل للمذهب الإباضي ببلاد المغرب، ومن بينهم عبد الرحمن بن رستم، وبدايات انتشار الدعوة الإباضية، ثم بناء مدينة تاهرت التي اتخذت تأسيس لدولتهم، وتحدث عن أخبار أئمتها واحدًا واحدًا، بالإضافة إلى أخبار شيوخ المذهب الإباضي بين الطبقتين السابعة والعاشرة، أي بعد سقوط الدولة الرستمية.

كما ألف مقرين بن محمد البغطوري النفوسي، وهو من مشايخ القرن 6هـ/12م، كتاب «سيرة أهل نفوسة»، أكمل تأليفه سنة 599هـ/1202م في قرية جناون إحدى قرى جبل نفوسة بليبيا، والكتاب

على صغر حجمه يبدي اهتمامًا بقرى جبل نفوسة ومشايخها وعلمائها، وترجم لعدد من النساء في الجبل (ليفيتسكي، 2000، ص 156).

كذلك نجد «كتاب السير » لأبي الربيع الوسياني سليمان بن عبد السلام الذي عاش في النصف الثاني من القرن 6هـ/12م، وليس كما جاء في عدة مراجع وكتابات حديثة أنه توفي سنة 471هـ/1079م، وذلك لأن الشماخي في سيره وضعه في الطبقة الثانية عشر، وهو كتاب يتناول قواعد المذهب وسير كبار المشايخ وفتاويهم منذ قيام الدولة الرستمية حتى أيامه (ليفيتسكي، 2000، ص.156)، وقد أورد فيه الروايات المنسوبة لكل شيخ ترجم له، ثم سلك مسلكا آخر عندما خصص لكل إباضية بلاد المغرب عنوانا يذكر تحته روايات مشايخها، وتضمن معلومات عن النساء في جبل نفوسة ودورهن في الحياة الحضارية، إضافة إلى إبرازه دور العلماء في المجال السياسي، كما أشار أيضا للعلاقات بين الإباضية والفاطميين وأهل المذهب خاصة المناظرات، واشتمل على أخبار متفرقة منها أخبار العزابة، والحلقات العلمية (الشماخي، 2009، ج2، ص. 656؛ بحاز، 2015، ص.27).

ومن مؤرخي الإباضية البارزين والمشهورين **أبو العباس الدرجيني أحمد بن سعيد بن سليمان بن علي بن يخلف المحاري الإباضي** (ت670هـ/1271م)، عالم من علماء الشريعة، ومتكلم في قضايا العقيدة والإيمان على مذهب الإباضية، وله ولع بالتراجم وتقييد أخبار العلماء والأدباء، واهتم بالشعر وغلب فن التاريخ على أغلب تصانيفه، ألف كتاب «طبقات المشايخ»، وهو ما يذكره البرادي في «الجواهر المنتقاة»، ينقسم إلى جزأين كبيرين، الأول في التاريخ، والثاني في السيرة، أقدم فيه على ضبط تواريخ الولادة والوفاة للعلماء والمتكلمين

الفقهاء المترجم لهم، وذكر مصادر إباضية أغلبها مفقود في زماننا هذا وعرض لذكر حوادث ووقائع تاريخيّة تتصل بمنطقة بلاد المغرب الإسلامي، كما تطرّق في معرض تراجمه للعلماء والأئمة والمتكلمّين إلى قضايا فكرية دينية وعقدية كلامية، وأحيانا لغوية أدبية لها صلة بالسيرة العلمية للمترجم لهم، أو هي في جانب منها تتصل بطبيعة الجدل الديني والفكري المطروح آنذاك (ليفيتسكي، 2000، ص.53)، هذا إضافة إلى إحاطته بجانب مهم من تاريخ المغرب، وإيراده لأخبار مهمة تتصل بتاريخ الدول والإمارات التي شهدتها بلاد المغرب الإسلامي إلى حدود القرن 7هـ/13م (ناصر، 2000، ج2، ص.43).

وجاء بعد الدرجيني بقرنين تقريبا أبو القاسم بن إبراهيم البرادي (كان حيًا سنة 810هـ/1407م)، الذي ألف كتابا سماه «الجواهر المنتقاة فيما أخل به كتاب الطبقات»، وكتاب الطبقات هو «كتاب طبقات المشايخ»، تأليف العلامة أبي العباس أحمد بن سعيد الدرجيني، وهو الآخر ينحدر من أسرة علمية عرفت بالعلم والفضل والصلاح والإصلاح، وهو كتاب يمتاز بجمال أسلوبه الأدبي الرائع (الشماخي، 2009، ج2، ص 80)، وهو من أجل كتب المذهب في تاريخ الدولة الرستمية وتراجم علماء المذهب، غير أنه لم يتطرق إلى أحداث الخليفتين عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما وهي التي تعرف بأحداث الفتنة أو تاريخ الفتنة، أو الفتنة الكبرى، ورأى البرادي أن ذلك مخل بكتاب الطبقات، على اعتبار أن تلك الأحداث هي الأساس الذي افترقت عليه الأمة إلى فرق ومذاهب، لذلك فهو استدراك على كتاب الطبقات بذكر أحداث الفتنة الكبرى، حيث أن تلك الأحداث تشكل الجانب الأكبر والمهم من كتاب الجواهر

(ناصر، 2000، ج1، ص 106)، وقد ساق المؤلف بعض أحداث السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم بصورة موجزة، وأيضًا ساق تاريخًا موجزا عن الخليفتين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي اللّٰه عنهما، كمدخل إلى ذكر أحداث الفتنة الكبرى بصورة مفصلة.

ونختم مؤلفات الإباضية في السير والتاريخ بالشماخي أبي العباس أحمد بن سعيد (ت 928هـ/1521م)، صاحب كتاب «كتاب السير»، يعد هذا الكتاب خلاصة كتب السير الإباضية في بلاد المغرب، ويحتوي على مادة علمية غزيرة فيما يتعلق بشيوخ المذهب الإباضي وعلمائه وأئمته من أعلام العهد الأول في البصرة، وأعلام المغرب في عهد الرستميين إلى عصر المؤلف، وقد أورد معلومات وافية وغزيرة عن الولاة الذين تعاقبوا على ولاية جبل نفوسة، وعن الحلقات العلمية والأحداث السياسية التي مر بها الإباضيون، كما قدم لنا معلومات وافية عن حركة التجار وعن الحركة الثقافية، وفضلاً عن ذلك ساهم في إعطاء صورة واضحة للحركة الإباضية في المغرب منذ بداياتها وحتى وفاة المؤلف، ويعتبر هذا الكتاب واحدا من أهم المصادر في تاريخ الإباضية على وجه الخصوص، وذلك لما يتمتع به من منهجية متميزة تتلخص في دقة المؤلف وموضوعيته، حتى أنه يذهب أحيانًا إلى ترجيح الروايات السنية على الروايات الإباضية (ناصر، 2000، ص 98).

2. مصادر مؤرخي الإباضية:

تنوعت مصادر التأليف عند مؤرخي الإباضية ما بين القرنين الرابع والعاشر الهجريين، من مشاهدات عينية استمدوها من خلال مشاركتهم في أحداث عصرهم، أو الوقوف على آثارها، ومصادر

شفهية سمعوها من أشخاص آخرين كانوا مشاركين في الأحداث أو مشاهدين لها، بالإضافة إلى اعتماد بعضهم على عدد من الوثائق وظفوها في مؤلفاتهم، هذا فضلاً عن المصادر المكتوبة إباضية وغير إباضية.

1.2. المشاهدة العينية:

استخدم مؤلفو التاريخ والسير الإباضية مشاهداتهم وملاحظاتهم المباشرة في رفد تراجم أعلام كتبهم وحوادثها بتفاوت فيما بينهم، ونجد ذلك واضحًا في التراجم التي عاصروها، والأحداث التي وقعت في أيامهم،ومن الأمثلة على ذلك يقول أبو زكريا: «في سنة 449هـ/1057م، سار جماعة أهل طرابلس إلى وارجلان ونواحيها بجماعة كبيرة، وكانت تلك السنة تُسمى سنة الزيارة»(الورجلاني، 1986، ج2، ص 147)، وهذا دليل على أنه شاهد عيان على هذه المجموعة التي قامت بزيارة وارجلان.

ومن المشاهدات العينية عند الدرجيني ما يذكره في وصفه لحلقة العزابة في ورجلان عند التحاقه بها حيث يقول: «دخلت حلقة وارجلان حرسها الله في ربيع الآخر سنة ست عشر وستمائة، في أول ما وجب عليّ الصوم والبال خال من الهم، وكنت أعجب ممن ينفرد فلا يجتهد، وممن يمكنه الورود فلا يرد، ومن يخلو بالمفيد كيف لا يستفيد»(الدرجيني، 1974، ج2، ص.200)، ومن مشاهداته أيضا وصفه لمسجد تاهرت حيث يقول: «وهو من أربع بلاطات وهو إلى اليوم» (الدرجيني، 1974، ج1، ص.41).

وإذا انتقلنا إلى البرادي فنجده يذكر ما شاهده من تأليف أهل المشرق وتأليف أهل المغرب فيذكر في كتابه ما ذكرت وقفت عليه

من تأليف أصحابنا(البرادي، د.ت، ص 218)، ويوضح للقارئ أكثر عندما يذكر هذه المؤلفات وأجزاءها فيقول: وكتاب مدح العلم وأهله وقفت عليه في سفرين(البرادي، د.ت، ص 218 أ)، وعندما يتعذر على مؤرخي الإباضية المشاهدة فإنهم يعتمدون في رواياتهم على من شاهد الحدث، والدليل على ذلك ما يذكره بعض المؤرخين منهم، فيذكر أبو زكريا: «وذكر بعض أصحابنا من في عصرنا أنه رآه»(الورجلاني، 1986، ج2، ص 286)، وعند الدرجيني: «وبلغنا عن بعض من عاصره» (الدرجيني، 1974، ج2، ص497).

ومن هنا يتضح أن المشاهدة والمعاينة شكلتا جانبًا مهمًا من المادة التي اعتمد عليها مؤرخو الإباضية في ما يخص أحداث عصرهم، وعندما كان يتعذر عليهم أن يكونوا شهود عيان على بعض الأحداث، كانوا يلجئون إلى السماع من بعض الأشخاص من الذين شهدوا الحدث.

2.2. الرواية الشفوية:

تعتبر المشافهة أو الرواية الشفوية المصدر الأساسي لكل مؤرخي الإباضية. حيث أشار بعضهم في مقدمة كتبهم على أخذهم الأخبار والروايات الصحيحة البعيدة عن الشك. وقد ذكر الوسياني في كتابه ما نصه: «فأحببت أن أؤلف لكم منها كتابا مما بلغني وصح عندي ولم تخالجني فيه الشكوك...»(الوسياني، 2009، ج4، ص 228)، وذكر أيضا الدرجيني: «أن أذكر إنشاء الله ما وصل إليّ وصح عندي من مناقبهم وكراماتهم»(الدرجيني، 1974، ج1، ص 8).

وقد عمل مؤرخو الإباضية على السماع من الأشخاص المعاصرين للحدث، فأبو زكريا يذكر مروياته الشفوية والتي جاءت بصيغ

متعددة مثل: «حدث غير واحد»، و«ذكر بعض أصحابنا»، وعندما يذكر سماعه عن شيخه أبي الربيع فيقول: «حدث أبو الربيع»، و«حكى أبو الربيع»، و«ذكر شيخنا»، و«أخبرنا أبو الربيع»، إلى جانب مشايخ آخرين قد استقى منهم الورجلاني مادة أخباره الشفوية.

كما اعتمد بعض المؤلفين وكُتاب السير على ذويهم ممن شاركوا في الأحداث أو كانوا قريبين منها، فسمع أبو زكريا عن خاله إسحاق بن إبراهيم(الوسياني، 2009، ج2، ص123)، واعتمد الدرجيني على جده ووالده في سماعه، «فمن ذلك ما حكى أبي» (الدرجيني، 1974، ج2، ص 303)، وفي رواية أخرى يقول: «فمن ذلك ما سمعته من أبي»(الدرجيني، 1974، ج2، ص325 -326)، ويشير الشماخي إلى أن الدرجيني سمع من جده يخلف بن يخلف (الشماخي، 2009، ج1، ص 56).

3.2. المصادر المكتوبة:

تعود معظم المصادر التي اعتمدوها في مؤلفاتهم المكتوبة إلى رواة إباضيين نذكر منهم:

1.3.2. أبو سفيان محبوب بن الرحيل العبدي (عاش خلال القرن 2هـ/8م):

كان أحد شيوخ الإباضية البارزين في البصرة، عدّه الدرجيني من رجال الطبقة الرابعة، وقد عاصر كلاً من أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي، والربيع بن حبيب الفراهيدي، وغيرهما من مشايخ الإباضية المرموقين في مرحلة الكتمان، أو المرحلة التأسيسية للفرقة الإباضية، وتذكر المصادر الإباضية أن أبا سفيان ألف كتابًا ضخمًا في سيرة المذهب الإباضي، تحدث فيه عن رجال الإباضية وضمنه

كثيرًا من المعلومات المتعلقة بالفقه والتاريخ والأخبار، وقد اعتمد على رواياته معظم المؤلفين الإباضيين في جوانب مختلفة من مناقب علمائهم في المشرق، وأخبارهم وعلاقتهم بالسلطة الأموية آنذاك، بالإضافة إلى ما اشتملت عليه من فضائل أخلاقية ونوازل فقهية، وروايات تتعلق بالإمام جابر بن زيد وأخباره، وكذلك عن أخبار أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة وغيرهم(الدرجيني، 1974، ج2، ص ص 11 -30. البرادي د.ت، ص 150. الشماحي، 2009، ج2، ص 102)، وجاءت صيغة الأخبار على النحو الآتي: «قال أبوسفيان»، و«روى أبو سفيان»، و«حكى أبو سفيان»، و« وفي كتاب أبي سفيان»، و«وفي رواية أبي سفيان» وغيرها من الصيغ.

2.3.2. أبو عبد الله محمد بن بكر بن أبي بكر الفرسطائي النفوسي:

وُلد في جبل نفوسة في ليبيا في أواخر القرن الرابع الهجري، تلقى علومه الأولية في جبل نفوسه، ثم انتقل إلى جزيرة جربة حيث درس على الشيخ فصيل ابن أبي مسور، ثم انتقل إلى القيروان حيث تعمق في دراسة النحو واللغة العربية، كما أمضى بعض الوقت في الحامة في منطقة الجريد التونسية، حيث أخذ العلم عن الشيخ أبي نوح سعيد بن زنفيل، ولم يلبث أن أصبح من علماء الإباضية البارزين في بلاد المغرب، ثم أصبح زعيمهم الروحي ومرجعهم الديني منذ عام 409هـ/1018م، عندما قام بتنظيم وترتيب الحلقة الإباضية التي كانت تمثل الإمام الإباضي في طور الكتمان، وعرفت فيما بعد باسم هيئة العزابة، وله تآليف كثيرة في شتى فروع العلوم الإسلامية الإباضية من فقه وحديث وتفسير وعلم كلام وما شابه (الدرجيني، 1974، ج2، ص 197).

وقد أخذ عنه كثير ممن جاء بعده من العلماء والمشايخ الإباضيين، وقد ذكره الشماخي في سيره وقال: «إن الإباضية أقاموه مقام الإمام في جميع الأمور والأحكام، أسس لهم قواعد السيرة، وله في كل فن تآليف كثيرة»(الشماحي، 2009، ج2، ص 368)، ولكن كتبه لم تصل إلى أيدي الباحثين، ومن غير المعروف إن كانت مفقودة، أم أنها مطوية في رفوف المكتبات الإباضية الخاصة في بلاد المغرب، نقل عنه الدرجيني سيرة الحلقة الإباضية وطريقة تنظيمها، وهي من أهم الوثائق التي تعطينا صورة واضحة عن البناء الاجتماعي والتربوي للمجتمعات الإباضية في بلاد المغرب منذ بداية القرن الخامس الهجري، وجدير بالذكر أن حلقة العزابة لا تزال تؤدي وظيفتها في منطقة مزاب في جنوب الجزائر حاليًا.

3.3.2. أبو زكريا االوارجلاني (ت 474هـ/1081م):

عاش أبو زكريا في وارجلان ويصنفه الدرجيني في سلك رجال الطبقة العاشرة (450.500هـ/1058.1106م)، ألف كتاب «السيرة وأخبار الأئمة»، وأسهب فيه عن تاريخ الدولة الرستمية، وقد اعتمد عليه بعض من جاء بعده من المؤلفين، فقد نقل عنه الوسياني في مواضع كثيرة (الوسياني، 2009، ج2، ص 229 -230)، ويعتبر هذا الكتاب المصدر الرئيسي للجزء الأول من طبقات الدرجيني، إلا أن الأخير هذب أسلوب أبي زكريا وجعله سهلاً مقبولاً، حيث يقول في نهاية هذا الجزء: كمل بحمد الله ما يقابل الجزء الأول من كتاب الشيخ أبي زكريا، واعتمد عليه الشماخي في كتابه «السير» حيث ذكره ستة وثلاثين مرة، ومن بينها في أثناء حديثه من دخول أبي الخطاب القيروان وموت عاصم السدراتي بها.

4.3.2. أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي (ت 471هـ/1078م):

كان فقيهًا ومن مشاهير علماء عصره، أخذ العلم عن مؤسس حلقة العزابة الشيخ أبي عبد الله محمد بن بكر، ثم أصبح أحد أعضاء العزابة الذين يقصدهم التلاميذ من شتى أنحاء المغرب، صنفه الدرجيني ضمن الطبقة العاشرة(450.500هـ/1058.1106م)، وقد ذكره الشماخي وقال عنه: «أفنى شبابه في القراءة وبقية عمره في الإقراء، وأفاد خلقًا كثيرًا، واشتهر علمه في الآفاق»(الشماخي، 2009، ج2، ص 140)، له مؤلفات منها: «كتاب التحف المخزونة»، و«الجواهر المصونة» الذي يعتبره البرادي من أشرف تصانيف أهل الدعوة الإباضية في الكلام والأصول.

وقد ألف أبو الربيع سليمان بن يخلف كتاباً في السير، لكنه مفقود ويعتقد أنه ألفه بعد العام 450هـ/1058م، وإلى هذا الكتاب تعود معظم النقول المقتبسة عن أبي الربيع، والتي تضمنتها الأعمال السيرية الإباضية التي تعود للقرن 5هـ/11م، وبالأخص تلميذه أبو زكريا الوارجلاني(ليفيتسكي، 2000، ص112 -113)، وهذا ما يؤكده محقق كتاب «سير الوسياني» عندما تحدث عن مؤلف كتاب السيرة وأخبار الأئمة قائلاً: «أخذ جل معلوماته عن شيخه أبي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي».

وقد نقل عنه الوسياني والدرجيني والشماخي العديد من الروايات المتعلقة بعبد الرحمن بن رستم عندما تحصن «بوادي أجج»، بعد مقتل أبي الخطاب المعافري في طرابلس سنة 144هـ/761م في حربه مع محمد بن الأشعث الأمير العباسي.

5.3.2. أبو الربيع سليمان بن عبد السلام بن حسان بن عبد الله الوسياني (عاش خلال القرن 6هـ/12م):

كان أحد شيوخ الحلقة الإباضية الكبار، صنفه الدرجيني ضمن أعلام الطبقة الثانية عشر، أخذ العلم عن الشيخ الإباضي أبي محمد عبد الله بن محمد اللواتي (ت 528هـ/1134م) في ريغ، واشتهر الوسياني بمعرفة الأخبار والسير والتاريخ، ألف كتاب «السير»، وقد رتب رجاله الذين ترجم لهم تبعاً لمناطقهم، ويعتبر كتابه من المصادر الإباضية الهامة لكل دارس لتاريخ الحركة الإباضية في بلاد المغرب منذ الأيام الأخيرة للدولة الرستمية، وحتى القرن 6هـ/12م، نقل عنه الدرجيني جزءًا. من معلوماته المتعلقة بأخبار المشايخ الإباضيين المغاربة، وترد له إشارات متعددة في كتاب الطبقات وقد ذكر الدرجيني أن كل رواية في كتابه مرفوعة إلى أبي الربيع فهي مأخوذة عن أبي الربيع الوسياني، ويبدو أن الدرجيني كان يعتبره من أجل العلماء الإباضيين الذين أخذ عنهم وقد وصفه بأنه: «أحد شيوخ الحلقة الكبار، الحافظ للسير والآثار، المروي عنه التواريخ والأخبار»، كما ذكره الشماخي واعتمده في العديد من التراجم التي وردت في كتابه.

6.3.2. أبو سهل يحيى بن إبراهيم بن سليمان الوارجلاني:

عاش في نهاية القرن السادس الهجري وأوائل القرن السابع الهجري، وهو من مشايخ الإباضية المشهورين في وارجلان، وقدكان من تلامذته المشهورين الدرجيني الذي درّسه لمدة سنتين بين عامي 616 -618هـ/1219 -1221م، له عدة تصانيف منها «كتاب في التوحيد» رواه عن الشيخ أبي زكريا يحيى بن أبي بكر، وقد استفاد منه الدرجيني خلال إشارته لبعض المسائل المتعلقة بالعقائد الإباضية،

والغريب أن الدرجيني لم يفرد لأستاذه أبي سهل ترجمة خاصة في طبقاته.

أما بالنسبة للمصادر غير الإباضية، والتي كانوا يدعونها بكتب المخالفين، فلم تكن من مصادرهم المهمة، إلا في بعض المواضع القليلة، وهذا ما لاحظناه عند بعض المؤرخين كالدرجيني والبرادي والشماخي، ومن هذه المصادر نذكر كتاب «الكامل في الأدب» لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد (ت 285هـ/899م)، والذي خصص جزءًا منه للحديث عن الفرق الخارجية خاصة في فتراتها الأولى، وقد اعتمد عليه الدرجيني اعتمادًا كبيرًا في حديثه عن مشايخ الخوارج القعدة في البصرة، كما نقل عنه بعض الأخبار التي تتعلق بعصر النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين (الدرجيني، 1974، ج2، ص 10).

كما أشار الدرجيني إلى كتاب "قوت القلوب" لأبي طالب المكي (ت 386هـ/996م)، وذلك في ترجمته للإمام جابر بن زيد الذي أشاد هذا الأخير بعلمه وفضله. كما أن الشماخي اعتمد على الدرجيني في إشارته لهذا المصدر، حيث يقول: وفي الطبقات ذكر أبو طالب المكي في كتاب "قوت القلوب أن ابن عباس قال ...» (الشماخي، 2009، ج1، ص 189).

أشار البرادي والشماخي في بعض رواياتهما لابن الصغير باعتباره كان ناقلا للروايات الخاصة بتاريخ الرستميين، وشاهد عيان للأحداث الدائرة بتاهرت، وقد حرص ابن الصغير على الحياد في مواقفه، حيث قال في هذا الشأن" وإن كنا للقوم مبغضين ولسيرهم كارهين ولمذهبهم مستقلين فنحن وإن ذكرنا سيرهم على ما اتصل

بنا وعدلهم فيما ولوه، فلسنا ممن تعجبنا طلاوة أفعالهم ولا حسن سيرهم"(ابن الصغير، 1986، ص 11).

نقل الدرجيني عن الرقيق القيرواني (ت418هـ/1027م) مفضلاً إياه على أبي زكريا في معرض حديثه عن أبي عبد الله الشيعي وبداية تأسيس الدولة الفاطمية في المغرب حيث يقول: «رأيت باستخارة الله أن اختزل أكثر ماذكره الشيخ أبوزكريا في هذاالموضع،...، واستخلصه عن مقتضي ما ذكر الرقيق في تاريخ افريقية» (الدرجيني، 1974، ج1، ص 91).

وكان الشماخي من المعتمدين على الرقيق القيرواني في العديد من التراجم كترجمتة للإمام الإباضي أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري وقد تحدث في سياق هذه الترجمة عن الأسباب التي جعلته يدخل القيروان ويحارب قبيلة ورفجومة الصفرية حيث يقول: وحكى الرقيق عن أبي حسان أن رجلا من الإباضية دخل القيروان فرأى ناسا من الورفجوميين كابروا إمرأة على نفسها، والناس ينظرون ولم ينكروا ذلك عليهم فترك حاجته فأتى أبا الخطاب(الشماخي، 2009، ج2، ص 250).

وجعل الدرجيني الجغرافي أبا عبيد البكري (ت487هـ/1094م) كأحد مصادره في حديثه عن مدينة تاهرت، حيث قام بإضافة معلومات هامة نقلها من كتابه حيث يقول: «وقد وقفت في كتاب المسالك والممالك من ذكر بناء تاهرت على ما هو أوضح وأزيد، ورأيت أن أثبته في هذا الموضع، وإن كان في بعضه خلاف لما صححناه عن المشايخ» (الشماخي، 2009، ج1، ص41، 42).

4.2. الوثائق:

تنوعت الوثائق التي اعتمدها مؤرخو الإباضية في مؤلفاتهم بين وثائق سياسية، واجتماعية، بوصفها مصدرًا من معلوماتهم، وكانت هذه الوثائق متعددة الأغراض، وذات مساحات عريضة في مصنفاتهم بحيث لا يمكن حصرها،. من بين هذه الوثائق، أشار البرادي إلى وثيقة عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه لعمر بن الخطاب رضي الله عنه عند توليه الخلافة، والتي ورد فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد به أبو بكر عند آخر عهده بالدنيا خارجًا منها وعند أول عهده بالآخرة داخلا فيها حيث يؤمن الكافر، ويتقي الفاجر، ويصدق الكاذب أني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإن عدل واتقى فذلك ظني وعلمي فيه، ورجائي وأملي وإن بدل أو غير، فالخير أردت ولا أعلم الغيب، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون...» (البرادي، د.ت، ص 44؛ القائد، 2015، ص 111.).

كما تضمنت الوثائق نصوص معاهدات صلح مهمة، مثل معاهدة الصلح بين الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه وأهل المدينة من المهاجرين والأنصار(البرادي، د.ت، ص.88 أ)، وكذلك معاهدة بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما (البرادي، د.ت، ص.117 ب).

ومن الوثائق التي توضح علاقات الدولة الرستمية بجيرانها، ذكر الشماخي مضمون معاهدة الصلح بين عبد الوهاب بن رستم وعبد الله بن إبراهيم بن الأغلب، ممثل العباسيين، والتي نصت على أن تكون مدينة طرابلس والبحر تحت سيطرة بني الأغلب، فيما بقي ما هو خارج ذلك تحت حكم الإمام عبد الوهاب(الشماخي، 2009، ج2، ص 289).

كما أشار مؤرخو الإباضية إلى الرسائل والردود والفتاوى والاستشارات، منها جوابات زعماء المذهب في البصرة وفتاواهم التي كانت غالبًا تؤيد الأئمة الرستميين، في حين وصف المؤرخون الإباضيون خصوم الأئمة بأنهم أصحاب آراء فاسدة وسلكوا دروب الضلال، دون الدخول في تفاصيل الخلاف وأسبابه الحقيقية (الدرجيني 1974، ج1، ص 68).

كما اهتم بعض مؤرخي الإباضية بذكر وثائق تخص الجانب الإداري للدولة، مثل رسائل الإمام عبد الوهاب لأهل نفوسة، التي تضمنت عزل خلف بن السمح وتعيين عبد الحميد الجناوني واليًا.(الورجلاني، 1986، ج1، ص122؛ الدرجيني، 1974، ج1، ص18؛ الشماخي، 2009، ج1، ص 312 -313).

ووثق البرادي بعض كتب الإباضية التي ألفها علماء المذهب في الأحداث والعقائد والفقه ونصرة المذهب، حيث ألقى الضوء على مؤلفاتهم في المشرق والمغرب ومؤلفات علماء جبل نفوسة، ذاكرًا مع ذلك فوائد بعض الكتب أو قيمتها العلمية، والتزم في هذه الرسالة الأمانة العلمية؛ إذ يذكر قصته مع الكتاب بقوله: «وقعت عليه في سفرين»، وبعضها يقول: «رأيته ولم أعرف مؤلفه» (البرادي، د.ت، ص 219؛ القائد، 2015، ص 113).

3. منهج مؤرخي الإباضية:

1.3. أسلوب العرض التاريخي:

غلب على معظم مؤلفات مؤرخي الإباضية استخدامهم لمنهج التاريخ حسب الموضوعات، وتجلى ذلك فيما صنفوه من كتب تؤرخ للدعوة الإباضية، وتاريخ أئمة دولتهم، وما تناولوه من تراجم لسير

فقهائهم وأعلام مذهبهم، فأبو زكريا الورجلاني اتبع هذا المنهج في تأليف كتابه «السيرة»، الذي قسمه إلى عدة موضوعات، كل قسم منها منفصلاً عن القسم الذي يليه، فذكر في البداية سبب انتشار المذهب الإباضي في بلاد المغرب(الورجلاني، 1986، ج1، ص39)، ثم الحديث عن إمامة الإباضيين؛ الأولى بقيادة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري في المغرب الأدنى(الورجلاني، 1986، ج1، ص154 أ)، ثم أخبار الدولة الرستمية من بداية تأسيسها إلى غاية نهايتها، ثم أخبار المشايخ وأهل الدعوة قرنًا بعد قرن، ثم سار على هذا النهج في بقية كتابه(الورجلاني، 1986، ج1، ص ص 69، 88، 157، 204، 253 ب).

وقد قام الوسياني محاولا أن يتم ما قام به أبو زكريا الوارجلاني، فقد جاء بأخبار جديدة، واتبع في كتابه طريقة تختلف عن طريقة أبي زكريا في بعض الوجوه، إذ أورد الروايات المنسوبة لكل شيخ ترجم له. ثم سلك مسلكا آخر عندما خصص لكل منطقة إباضية في المغرب الإسلامي عنوانا يذكر تحته روايات مشايخها، مثل روايات أهل جبل نفوسة، وروايات جربة وهكذا(الوسياني، 2009، ج1، ص 350 أ)، وتحت تلك الروايات أخبار ومسائل ووصايا، رتبها الوسياني ترتيبًا محكمًا في الغالب، إذ أنهم في ذكر المشايخ الذين يروي عنهم حسب الترتيب الزمني لهم، فيبدأ بأقدمهم وصولا إلى المعاصرين له(الوسياني، 2009، ج1، ص 122).

وقسم الدرجيني كتابه في قسمين، القسم الأول؛ يتعلق بتاريخ الدعوة الإباضية في بلاد المغرب وقيام الدولة الرستمية وسقوطها، والقسم الثاني؛ خصصه لسير وأخبار رجال الإباضية، حيث استهل كتابه بمقدمة تحدث فيها عن قيمة العلم وفضله، مستدلاً بعدد من

الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة التي تكرم العلم والعلماء، كما أشار في هذا التقديم إلى الأسباب التي دعته إلى تصنيف هذا الكتاب.

بعد الانتهاء من المقدمة، شرح المؤلف في كتابه الأول من مؤلفه الخاص بالقسم التاريخي بادئًا بالتأريخ لتسرب المذهب الإباضي إلى بلاد المغرب، ثم تأسيس الدولة الرستمية وأعمال الأئمة الرستميين، وانقسام الحركة الإباضية في المغرب إلى فرق مختلفة، ثم شرح نظام العزابة الذي تأسس في بداية القرن 5هـ/11م، معتمدًا على مقتطفات طويلة من سير الحلقة لأبي عبد الله محمد بن بكر مؤسس نظام العزابة.

وكان جل اعتماده في هذا القسم على سير أبي زكريا يحيى بن أبي بكر الورجلاني، مع إضافات يسيرة وفي ذلك يقول: «فأخذت في تهذيب الكتاب المذكور (سير أبي زكريا) وأضيف إلى ذلك ما لا بد منه من خطبة وشعر غير مشهور»(الدرجيني، 1974، ج1، ص 22).

أما القسم الثاني؛ وهو مجموعة سير علماء وشيوخ إباضيين مشهورين، مقسمة إلى طبقات، جاعلاً كل طبقة خمسين سنة. وقد ترجم في كل طبقة للمشايخ الذين عاشوا فيها حتى عام 650هـ/1252م، وعددهم إثنا عشر طبقة، خصص الأربع الأولى منها لشيوخ الإباضية المشارقة، خاصة في القرنين الأول والثاني الهجريين، وخصص تراجم الطبقات الثماني الأخرى للمغاربة(ليفيتسكي، 2000، ص 55 - 56).

والحقيقة أنه قد اتبع أسلوبًا مفيدًا في تقسيمه لطبقات الرجال زمنيًا، وبذلك يستطيع الباحث أو القارئ أن يعرف العصر الذي عاش

فيه الشخص المترجم له، والأحوال السائدة في زمنه، وأثر ذلك على تربيته وأعماله وبذلك سد الدرجيني بهذا الترتيب ثغرة عانت منها معظم المؤلفات الإباضية المغربية.

وقام البرادي بالجمع بين المنهجين الحولي والموضوعي في كتابه، حيث استعمل في كتابه "الجواهر" المنهج الحولي ـ حسب السنين ـ بداية من هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، ثم خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم (البرادي، د.ت، ص20، 55)، وبعد ذلك جاء على ذكر فضائل الصحابة والتابعين، وتاريخ من جاء بعدهم من أئمة الإباضية، وذلك بترتيب الوقائع والأحداث على حساب السنين والشهور والأيام(محمود إ، 2000، ج1، ص.27، 31)، على أن يقوم بتجميع مختلف الحوادث في كل سنة، مراعيًا للربط فيما بينها بكلمة «وفيها»، السنة الثالثة من الهجرة حصل فيها (البرادي، د.ت، ص 22)، ويبدو أن البرادي قد تأثر بمنهج بعض المؤرخين الأولين كالطبري (ت 310هـ/922م)، وابن مسكويه (ت 420هـ/1030م)، إضافة إلى هذا فقد أورد في كتابه الطبقة الثانية للإباضية تناول فيها جابر بن زيد وعبد الله بن إباض وأقوالهما ومناقبهما(البرادي، د.ت، ص 155 أ).

ويتبين مما سبق أن البرادي جمع بين المنهج الحولى والمنهج الموضوعي في إيراد المعلومات وترتيبها في نسق واحد، وأفاد منها في كتابة تاريخه.

ويمثل الشماخي خاتمة تأليف السير الاباضية، إذ جاء شاملاً جامعًا للأعلام ومناقبهم، ودرج على اتباع نهج الطبقات، وقسم كل طبقة إلى خمسين سنة، تبدأ الطبقة الأولى من السنة الأولي للهجرة،

وتنتهي عند السنة الخمسين(الشماخي، 2009، ج1، ص.109)، وهكذا إلى آخر طبقة من تقسيمه.

2.3. الإسناد:

تعددت أسانيد مؤرخي الإباضية وتنوعت رواياتهم، فقد جاء بعضها بالسند كاملاً حتى صاحب الخبر الأصلي، وأحيانا أخرى يكون مقطوعًا، فأبو زكريا الورجلاني اعتمد على أسلوب إسناد الروايات إلى مصادرها المتعددة، وتسجيل الأقوال بنصها، سواءً كانت من كتاب أو رواية، أو مشاهدة أو مشافهة، مستعملاً أحيانا إسنادًا كاملاً (إسنادا متصلا)، وأحيانًا إسنادًا مختصرًا (إسنادا مقطوعا)، وفي بعض الأحيان يعتمد الإسناد إلى مجهول.

ويشير أبو زكريا أنه سمع بعض رواياته من أكثر من راو، فيقول: «وجدت غير واحد من أصحابنا أن أبا نوح قال» (الورجلاني، 1986، ج1، ص ص65 ـ 66)، ولعل أبا زكريا هذا أراد أن يؤكد على صحة ما يرويه.

واهتم أبو زكريا أيضا بذكر الروايات المختلفة للخبر دون أن يرجح الأصوب منها، ويبين ذلك في حديثه عن أبي الخطاب المعافري ودخوله القيروان، حيث ذكر ثلاث روايات؛ وبلغنا أن امرأة من نساء القيروان كتبت بطاقة إلى أبي الخطاب(الورجلاني، 1986، ج1، ص66أ)، وبلغنا عن طريق آخر أن ورفجومة أخرجت امرأة من القيروان، وذكر أصحابنا أن امرأة من أهل القيروان ظلمتها ورفجومة فصاحت القيروان(الورجلاني، 1986، ج1، ص 66 ب).

والتزم الوسياني بإيراد السند معتمدا الاختصار عند ذكر شيخه أبي محمد عبد الله ابن محمد العاصمي كل مرة، فإذا قال:

فاعلموا - أيدكم الله - ربما ذكرت غير أبي محمد في الإسناد، وإذا كان الإسناد عنه أهملته لئلا يطول الكتاب من غير جفاء لذكره، ولكن حبا للاختصار الذي لا يجر إلى الإكثار(الوسياني، 2009، ج1، ص 229).

وقد اهتم الدرجيني بذكر الروايات المختلفة للخبر وترجيح أقربها للصواب، وأشار إلى ذلك في مقدمه كتابه فقال: «أذكر إن شاء الله ما وصل إلي وصح عندي من صفاتهم وكراماتهم»(الدرجيني، 1974، ج1، ص.65).

وهذه الإشارة إلى أنه قام بعمليه غربله لما هو بين يديه من روايات وأخبار قبل تحريرها في كتابه، كما أنه كان جريئًا في نقده بعض الأخبار وتصويبها، مستحدثًا ألفاظ الجرح والتعديل لنقد الرواة والأسانيد، ومستعملاً في ذلك بعض العبارات مثل: «واضحة عندي» (الدرجيني، 1974، ج1، ص.65 أ)، «وهذا وهم وغلط»(الدرجيني، 1974، ج1، ص.97 ب)، «وهذا عندي إذا صح» (الدرجيني، 1974، ج1، ص 146 ت)، وفي هذه الحكاية مواضع تحتاج للنظر (الدرجيني، 1974، ج1، ص 242 ث)، وهذه ألفاظ فيها جفاء، وفي الرواية بعض المخالفة للخبر.

وأغفل الدرجيني ذكر السند لبعض رواياته يبدو أن السبب في ذلك كان بهدف التخلص من تكرار الأسانيد والميل إلى الاختصار والبعد عن الاستطراد في تتبع سند الروايات.

واهتم البرادي بالإسناد لكنه في بعض رواياته تميّز بذكر مصدره المدوَّن أولاً، ثم يورد أسماء الرواة، وقد انفرد بهذه الميزة عن غيره ممن سبقه ومن جاء بعده، ومثال ذلك يقول: «ومن المسند أبو عبيدة عن جابر عن عائشة» (البرادي، د.ت، ص 45)، ويحتمل تفضيله

لهذه الطريقة للتفريق بينه وبين كتب المخالفين التي استقى منها بعض رواياته، وهذه الطريقة من الإسناد طبقها من كتب الإباضية دون غيرهم.

كما نجده في بعض الروايات يذكر سلسلة السند كاملة، ومن الأمثلة على ذلك قوله: «وحدثنا عبد الملك بن أبي سليمان الفزازي عن سالم بن أبي الجعد عن محمد بن على بن أبي طالب أنه قال: كنت مع أبي حين قتل الخليفة عثمان، فقام فدخل منزله فأتاه أصحاب رسول صلى الله عليه وسلم فقالوا إن هذا الرجل قد قتل ولا بد للناس من إمام ولا نجد لهذا الأمر أحق منك»(البرادي، د.ت، ص 99).

وطبّق الشماخي الإسناد مكتفيا بذكر اسم المؤلف الذي أخذ عن كتابه، وهذا ما لاحظناه في تراجمه للطبقات الأولى، ومن الأمثلة على ذلك قوله: «قال أبو سفيان قال وائل: أدركت بحضرموت رجالاً إن كان الرجل منهم لو ولي على الدنيا كلها لا يحتمل ذلك في عقله وحلمه وورعه»(الشماخي، 2009، ج2، ص 589).

ونلاحظ مما سبق أن مؤرخي الإباضية في بعض رواياتهم أغفلوا سلسلة السند كاملة حتى مصدرها الأخير، ويبدو أن إغفالهم للإسناد له ما يبرره، فالتحقق من صدق سلسلة الرواة المتعاقبين جيلا بعد جيل أمر مستحيل، وحتى لو أمكن ذلك فلا يمكن الوقوف على نوايا الرواة، وهذا يعني أن صحة السند لا تعني بالضرورة صحة المتن، ولعل ذلك يفسر تنديد بعض كبار المؤرخين بقاعدة الإسناد مصداق ذلك إجماع الرواة مثلا على روايات خرافية وأسطورية على الرغم بصحة إسنادها (ابن عبد البر، 1966، ص 6).

3.3. الاستشهاد بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية والشعر:

اقتبس مؤرخو الإباضية الكثير من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية والأشعار، في مؤلفاتهم، وهو ما يدل على اتساع ثقافاتهم الدينية بالإضافة إلى ثقافتهم الأدبية، هذا إلى جانب أن معظم كتبهم التاريخية هي كتب سير ومناقب، ويأتي استشهادهم بالآيات والأحاديث والشعر لغرض إضفاء المصداقية على آرائهم.

وقد توزعت هذه الاقتباسات في أغلب مؤلفاتهم؛ نذكر في البداية استشهاداتهم بالقرآن الكريم كمثال على ذلك ما جاء في كتاب «الجواهر» لأبي القاسم البرادي الذي استدل في العديد من المواضع بآيات قرآنية لتعزيز وتوثيق مروياته، فقد أورد آيات تخص حياة الرسول صلى الله عليه وسلم الشخصية منها: الوحي والمعجزات في قوله تعالى: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلِانسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ (سورة العلق، الآية:1. 2)، وأخرى عن زواجه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾(سورة الأحزاب، الآية:37)، ومنها بعض الآيات المتعلقة بالمعاملات والحديث مع النساء من وراء حجاب، وفرض الجمعة (البرادي، د.ت، ص ص 36، 44).

وفي معرض حديثه عن خلافة أبي بكر رضي الله عنه، وكيف واجه المرتدين الذين امتنعوا عن دفع الزكاة، استدل بقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ اَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ

صَلَوَٰتِكَ سَكَنٌ لَّهُمْۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾(سورة التوبة، الآية:104)، وفي حديثه عن الفتنة ومسألة التحكيم نجده يورد آيات تخص التحكيم في قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾(سورة المائدة، الآية:52).

وفي صراع الإباضيين مع الدولة الأموية يورد العديد من الآيات كالرسالة التي وجهها عبد الله بن إباض إلى عبد الملك بن مروان متضمنة نصائح وعواقب الظلم والاستبداد(البرادي، د.ت، ص ص175، 192)، وفي مسألة خلق القرآن يذكر الآيات التي استدل بها الإمام محمد بن أفلح في رسالته لعموم المسلمين(البرادي، د.ت، ص ص175، 192أ).

أما بالنسبة للاستشهاد بالأحاديث النبوية فقد اقتبسوا منها ما يخدم أغراضهم الكتابية، كالأحاديث التي تبين فضائل الفرس لإضفاء الشرعية على الأئمة والفقهاء وترسيخها في نفوس الرعية، بأنهم هم من ينطبق عليهم قول رسول صلى الله عليه وسلم، ومن الأمثلة على ذلك ما أورده ابو زكرياء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لو أن الدين متعلق بالثريا لتناولته رجال من العجم، وأسعدهم به فارس»(الشماخي، 2009، ج1، ص49)، كما ذكر الدرجيني حديثًا آخر للنبي عليه الصلاة والسلام: «إن لله كنزا ليس من ذهب ولا فضة، لكنه في بطون أبناء فارس» (الدرجيني، 1974، ج1، ص44).

أما بخصوص قرض مؤرخي الاباضية للشعر، فقد حفلت مؤلفاتهم بالاقتباسات الشعرية من فحول شعراء عصرهم، وسابقيهم

فتمكنوا من توظيف الشعر في خدمة أغراض الكتابة التاريخية، لأن بين التاريخ والأدب علاقة أكيدة ونسب لاصق حتى قيل أن التاريخ والأدب توأمان، لذلك نجد الدرجيني مثلاً من المكثرين بالاستشهاد بالشعر في أخباره (الدرجيني، 1974، ج2، ص459 أ).

وقد عرفت هذه الاقتباسات الشعرية بالتفاوت في مؤلفاتهم، فمثلا نجدها قليلة عند أبي زكريا، بينما جاءت كثيره عند الوسياني (الوسياني، 2009، ج2، ص1055)، والدرجيني(الدرجيني، 1974، ج1، ص ص219 -220، 224، 226)، والبرادي، ومردُّ ذلك إلى حرصهم على الاستقصاء في كل ما يتعلق بالترجمة وذلك بذكرهم للقصائد التي مدح بها الشعراء العلماء والمدن، والقرى التي تتجمع فيها الإباضية.

4.3. عناصر الترجمة:

لم يذكروا كثيرًا سنوات الولادة والوفاة لمن ترجموا لهم، وكان اهتمامهم في المقام الأول بذكر المناقب والشمائل لأخذ العبرة والعظة، كما أبدوا اهتمامًا لا بأس به بذكر النشأة والتكوين العلمي والإنتاج المعرفي لمن ترجموا لهم، وأيضا ذكروا الزيارات والرحلات العلمية التي قام بها العلماء والفقهاء لتفقد أحوال الناس وتفقههم في أمور دينهم ودنياهم.

ومن جانب آخر ذكروا المهن والوظائف التي كان يقوم بها البعض ممن ترجموا لهم كوظيفة أو من مارس بعضهم لحرف معينة، فيذكر الوسياني مثلا أن أبا محمد ويسلان وأصحابه، أصحاب شياه وبقرات (الوسياني، 2009، ج1، ص314)، وعند الدرجيني أن محمد ويسلان كان راعي غنم (الدرجيني، 1974، ج2، ص.354)، وهناك إشارات إلى من اشتغل بالتجارة كأبي عبيدة عبد الله بن القاسم،

تاجرًا خرج إلى الصين(الدرجيني، 1974، ج2، ص354 أ)، وفي ترجمة أبي معروف وذكر غير واحد من أصحابنا أن أبا معروف كان تاجرا حينا من الدهر(الشماخي، 2009، ج1، ص417).

ونستنتج مما سبق أن العلماء إلى جانب اهتمامهم بالتحصيل العلمي والتدريس وحضور الجلسات العلمية كانوا يمارسون مهنة الزراعة والرعي والتجارة.

خاتمة:

من خلال دراستي لموضوع التدوين التاريخي للإباضية في بلاد المغرب ما بين القرنين الرابع والعاشر الهجريين، توصلت إلى مجموعة من الملاحظات يمكن إجمالها فيما يلي:

- أن مؤلفات الإباضية في السير قد تميزت بالمذهبية، فقد اعتنت بتدوين تاريخ الإباضية دون غيرها وركزت على الأئمة الرستميين، وترجمت لأعلام المجتمع الإباضي من الفقهاء والمحدثين والعلماء، وانتقدت الحركات المناوئة لحكم أئمتهم.

- إن الهدف الأساسي من تدوين السير الإباضية، هي الحفاظ على أخبار أهل الدعوة من الاندثار والضياع، وهو ما يفسر لنا حلقة التواصل الزمني الموجودة بين تواريخ تأليف كتب السير.

- نلاحظ أن مؤلفات الإباضية في السير قد ركزت في مجملها على الجانب التشريعي للفقه الاباضي مهملة للجانب التاريخي، إلا ما جاء عرضًا.

- تعددت مصادر مؤرخي الإباضية ما بين مشاهدات عينية ومصادر شفهية اعتمدوا فيها على رواة كانوا مشاركين في تلك الأحداث، أو مشاهدين لها، كما أتاح لهم الاطلاع على بعض الوثائق

المهمة كالرسائل والجوابات، وقد دون بعضهم هذه الوثائق في مؤلفاتهم، وذكر بعضهم مضمونها، إضافة إلى اعتمادهم الكبير على المصادر الإباضية للفترات السابقة عنهم، كما نقلوا من مصادر غير اباضية لكن في مواضع قليلة جدا في تدعيم آرائهم.

- إكثار مؤرخي الإباضية في ذكر الأساطير والكرامات المنسوبة إلى مشايخ مذهبهم، وخاصة المغاربة منهم وفي هذا الصدد نراهم يقتصرون في ترجماتهم لهم على النواحي الإيجابية حتى ليبدو للقارئ أن بعض هؤلاء الرجال كانوا معصومين، وفي المقابل تنعيت معارضيهم وخصومهم بالفسوق والضلال مما يدل على تعصبهم المذهبي اتجاه مخالفيهم.

- سلك مؤلفو الإباضية لمناهج لم تختلف كثيرًا عن سابقيهم من المؤرخين، فقد استخدموا المنهج الموضوعي أو الحولي، أو الجمع بين المنهجين الحولي والموضوعي في مؤلف واحد، وندرة استخدامهم للمنهج الحولي، وتعويلهم على المنهج الموضوعي.

- تباين مؤرخو الاباضية في ذكر سلسلة سند رواياتهم فقليل منهم من اعتمد السند الكامل فجلهم كانوا يذكرون الراوي الأول والأخير للرواية في الإشارة إلى مصدر معلوماتهم، وغالباً ما يكتفون بذكر اسم المؤلف الذي أخذوا عن كتابه.

- عمد مؤرخو الإباضية إلى الاستشهاد بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية والشعر، بما يخدم أغراضهم الكتابية، وهذا ما لاحظناه فبإيرادهم لبعض الأحاديث الموضوعة التي تمجد بعض الأجناس مثل البربر والفرس.

- حرص مؤرخو الإباضية في تراجمهم على ذكر النشأة والتكوين العلمي للعلماء والفقهاء وإنتاجهم المعرفي، والزيارات والرحلات العلمية التي قام بها بعضهم.

قائمة المصادر والمراجع:

* القرآن الكريم، برواية ورش عن نافع.

1 -ابن الأثير عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الجزري، **الكامل في التاريخ**، تحقيق: عبد الله القاضي، بيروت: دار الكتب العلمية.

2 -بحاز إبراهيم، (2015)، **الدولة الرستمية (160 - 296هـ / 777 - 909م): دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية**، قسنطينة: وزارة الشؤون الدينية والأوقاف.

3 -البرادي أبو الفضل بن إبراهيم الدماري التونسي، (د.ت). **الجواهر المنتقاة فيما أهمله كتاب الطبقاة**، القاهرة.

4 -بروكلمان كارل، (1959)، **تاريخ الأدب العربي**، ترجمة: عبد الحليم النجار، القاهرة: دار المعارف.

5 -تاديوس ليفيتسكي، (2000)، **المؤرخون الإباضيون في إفريقيا الشمالية**، ترجمة: ماهر جزار، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

6 -جمعية التراث، (2000)، **معجم أعلام الإباضية**، الإستشارة والمراجعة: محمد صالح ناصر، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

7 -ابن حزم أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الظاهري الأندلسي، (1999)، **جمهرة انساب العرب**، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة: دار المعارف.

8 -ابن خلدون أبي زيد عبد الرحمن بن محمد، (2001)، **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق ومراجعة سهيل زكار**، بيروت: دار الفكر.

9 -الدرجيني أبو العباس أحمد بن إبراهيم. طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق: ابراهيم طلاي، البليدة: الجزائر.

10 -زقاوي محمد وبلبشير عمر، (جوان 2017)، **الحركة العلمية بورجلان من خلال نظام حلقة العزابة ما بين القرن 4 ـ 6هـ، علم الكلام نموذجًا**، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، مج8، ع1.

11 -ساحلي آسيا، (2008)، **إنتاج وانتقال المعارف التاريخية في المغرب الأوسط**، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، إشراف: علاوة عمارة، قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر الإسلامية.

12 -ابن السلام اللواتي، (1985)، **بدء الإسلام وشرائع الدين**، تحقيق: فيرنزشفارتس وسالم بن يعقوب، بيروت: دار إقرأ.

13 -شكيران محمد، (2010)، **الكتابة التاريخية في بلاد المغرب في القرنين 4 و5هـ/10 و11م)**، اشراف أمال محمد حسن، جامعة عين شمس بالقاهرة، مصر: كلية البنات.

14 -الشماخي أبي العباس أحمد، (2009)، **سير المشايخ**، دراسة وتحقيق: محمد حسن، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

15 -ابن الصغير المالكي، (1986)، **أخبار الأئمة الرستميين**، تحقيق: محمد ناصر وبحاز إبراهيم بكير، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

16 -ابن عبد البر أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد القرطبي، (1966)، **الدرر في اختصار المغازي والسير**، القاهرة: نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

17 -ابن عِذارى أبو عبد الله محمد المراكشي، (1983)، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق ومراجعة: كولان وليفي بروفنسال، بيروت: دار الثقافة.

18 -القائد أحمد مفتاح، (2015)، **مؤرخو الاباضية في بلاد المغرب (من القرن 3 إلى 9هـ/9 -15م)**، رسالة دكتوراه غير منشورة، إشراف عفيفي محمود ابراهيم، جامعة بنها، مصر: كلية الآداب.

19 -محمود إسماعيل، (2000)، **سوسيولوجيا الفكر الإسلامي**، بيروت: سينا للنشر، مؤسسة الانتشار العربي.

20 -الورجلاني أبو زكريا يحي بن أبي بكر، (1986)، **كتاب السيرة وأخبار الأئمة**، تحقيق: عبد الرحمن أيوب، تونس: الدار التونسية للنشر.

21 -الوسياني أبو الربيع سليمان بن عبد السلام، (2009)، **سير الوسياني**، دراسة وتحقيق: عمر بن لقمان سليمان بوعصبانة، مسقط: وزارة التراث والثقافة.